

جوانب من شخصية القائد نور الدين محمود زنكي

(511هـ-569هـ/1118م-1174م)

الورع والحزم " أنموذجاً "

Aspects of the Personality of the Leader Nur al-Din Mahmud Zanki**(511AD-569AD/1118AD-1174AD)****Piety and Determination "as a Model"**

https://orcid.org/0009-0009-7076-2768	د . محمد عثمان الخطيب
www.najah.edu	جامعة النجاح الوطنية — نابلس / فلسطين
	m.alkhateeb@najah.edu

تاريخ الاستلام: 13/09.../2025... تاريخ القبول: 20/11/2025

الملخص : تسلط هذه الدراسة الضوء على بعض الجوانب المتعلقة بشخصية نور الدين محمود والمتعلقة بالورع والحزم والتي كان لها دور واضح في تكوين شخصيته وأثرها في التعامل مع الأوضاع الداخلية، ومع خصومه وأعدائه من الصليبيين، فقد أظهرت الدراسة مدى التزام نور الدين بأداء العبادات وتمسكه بأحكام الشريعة الإسلامية واتخاذها منطلقاً لأفعاله وأقواله وتحركاته المختلفة وتطبيق ذلك على أرض الواقع. وقد هدفت الدراسة إلى إظهار التميز الذي تمتع به نور الدين على غيره من الأمراء في عصره، وأحابت عن أسئلة الدراسة والمتعلقة بشخصية نور الدين مثل: ما أثر الورع في تكوين شخصية نور الدين محمود؟ وكيف أثر الحزم في قرار نور الدين محمود في توحيد بيته الداخلي؟، وما أثر ورعه في اقتداء الناس به؟، وما أثر ورعه في إشاعة الطمأنينة بين الناس؟، وما أثر ورعه وحزمه في مجابهة الصليبيين؟، كل هذه التساؤلات أجابت عنها الدراسة من خلال الأدلة والشواهد التاريخية التي استنبطت من المصادر ذات العلاقة.

\الكلمات المفتاحية: نور الدين محمود، الأمراء الأيوبيون، الورع، الحزم، الصليبيون.

Abstract : This study sheds light on certain aspects of the personality of Nur al-Din Mahmud, particularly his piety and resolve, which played a significant role in shaping his character and influencing his responses to internal affairs as well as interactions with his rivals and Crusader enemies. The study highlights Nur al-Din's deep commitment to performing religious rituals and adherence to Islamic Sharia law, using it as the foundation for his actions, speech, and movements, and implementing these principles in real-life situations.

The study aims to demonstrate the distinction Nur al-Din enjoyed compared to other princes of his era. It addresses several research questions related to his character, such as: What impact did piety have on shaping Nur al-Din Mahmud's personality? How did his resoluteness influence his decision to unify his internal domain? In what ways did his piety encourage others to emulate him? How did his piety foster a sense of security among the people? And how did both his piety and firmness contribute to confronting the Crusaders? These questions are answered through historical evidence and sources relevant to the subject.

Keywords: Nur al-Din Mahmud, Ayyubid Emirs, Piety, Determination, Crusader

المقدمة:

يعد نور الدين محمود زنكي من أشهر زعماء المسلمين، لما يتمتع به من إيمان، ونشاط، ما أهّله لتحقيق أهدافه وصولاً إلى الانتصار على خصومه، وضبط البيت الداخلي، وتوحيد بلاد المسلمين تحت قيادته، لمواجهة الغزاة الصليبيين لتخليص بلاد الشام منهم، وقال عنه ابن كثير: "كان كثير المطالعة، محافظاً على أمور دينه، محباً للخير، مقتصدًا في المأكل والملبس، حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمنه أعلى نفقة منه، ولم يُسمع منه كلمة بغض في غضب ولا رضى".

ضبط نور الدين نفسه أولاً، قبل أن يلزم أهله وشعبه بسياسة التقشف، فتجرد من نعيم الدنيا، ومغرياتها، كالبدخ والترف، فعاش متواضعا دون أن يفقد شيئاً من سلطانه، كما انتجت جهود نور الدين وسياسته الحكيمة في الوصول إلى مجتمع متكامل، وأصبح التعاون من أبرز مظاهر المجتمع، وبذل جهده لإنشاء جيل جديد صحيح العقيدة، جاهزاً للهدف الأسمى وهو التحرير.

وتكمن أهمية الموضوع وأهدافه في بيان أثر الورع والحزم في تشكيل شخصية نور الدين محمود وصلقلها والتي مكنته من تحقيق الإنجازات الكبيرة سواء على الصعيد المحلي والمتمثلة بتوحيد بيته الداخلي أو الصعيد الخارجي في مواجهة الصليبيين، وقد اتبع المنهج التاريخي الوصفي في هذه الدراسة من خلال استنباط معلوماتها من مصادرها الأصلية والمعاصرة لنور الدين محمود وتوظيفها بما يخدم فكرة الدراسة.

اسئلة الدراسة:

- ما أثر الورع في تكوين شخصية نور الدين محمود؟
- كيف أثر الحزم في قرار نور الدين محمود في توحيد بيته الداخلي؟
- ما أثر ورع نور الدين محمود في اقتداء الناس به؟
- ما أثر ورع نور الدين محمود في إشاعة الطمأنينة بين الناس؟
- ما أثر الورع والحزم في مجابهة الصليبيين؟

1 مفهوم الورع والحزم:

أجمعت المعاجم على أن الورع يعني الكف والانحياس والتعفف، والورع: العفة، وهي الكف عما لا ينبغي للإنسان⁽¹⁾، وفسره ابن سيده بالتحرج، ورع من ذلك يرع ويورع⁽²⁾، وفسره الزبيدي بالتقوى: "الورع، محرّكة: التقوى، والتحرج، والكف عن المحارم⁽³⁾، ومن هنا فالورع هو التَّقْيُ، وفاقاً لقول الرازي: "الورع بكسر الراء التَّقْيُ"⁽⁴⁾.

أما الحزم: الحاء والزاي والميم أصل واحد، وهو شدُّ الشيء وجمعه، قياسٌ مطرد، فالحزم: جودة الرأي، وكذلك الحزامة، وذلك اجتماعه وألا يكون مضطرباً منتشراً⁽⁵⁾، وجاء في لسان العرب: الحزم ضَبَطَ الإنسان أمره، والأخذ فيه بالثقة، ورجلٌ حازم هو العاقل المميز ذو الحنكة⁽⁶⁾، والحزم

(1) . الرازي، أحمد بن فارس القزويني (ت 395هـ/1004م)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979، مادة ورع، ج 2، ص 53.

(2) . ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000، مادة ورع.

(3) . الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الملقب بمرتضى (ت 1205هـ/ 1790م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، مادة ورع.

(4) . الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحنفي (ت 666 هـ/ 1267م)، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، صيدا، 1999، مادة ورع.

(5) . الرازي، أحمد بن فارس القزويني، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979، مادة حزم، ج 2، ص 53.

(6) . ابن منظور، محمد بن مكرم (ت 711 هـ/ 1311م)، لسان العرب، 15 مجلداً، دار صادر، بيروت، باب لفظة (حزم) ج 12، ص 131 - 133.

ضبط الأمر والاستعداد له، ضبط الرجل أمره من قولهم: حزم الشيء: أي شدته⁽⁷⁾، ومنه حديث الوتر " أنه قال لأبي بكر: أخذت بالحزم"⁽⁸⁾، والحزم الذي يضع الأمور في مواضعها،⁽⁹⁾.

المبحث الثاني: نور الدين (المولد والنشأة):

هو الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن عماد الدين أتابك زنكي، ولقب بـ "زنكي" بلقب والده، كما قيل له ابن القسيم⁽¹⁰⁾ كان مولده سنة (511هـ/1118م) ونشأ في كنف والده، ودرس القرآن، وكان شهماً وشجاعاً⁽¹¹⁾، لذا قدّمه أبوه على الآخرين لما رأى فيه من محاميل النجابة⁽¹²⁾.

ورث كثيراً من صفات أبيه، فقد تميز بالشجاعة والكفاءة الإدارية والعسكرية والبراعة السياسية، والرغبة الشديدة في رفع راية الجهاد ضد الإفرنج، وهذه الخبرة اكتسبها من خلال مرافقته أبيه وقوّاده في كثير من الحروب ضد الصليبيين⁽¹³⁾.

اختص نور الدين محمود بمجموعة من القدرات التي أهلته لبناء دولته على أسس سليمة قادرة على مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية، وقد أشار المؤرخون إلى عدد منها: كالجديّة والدّكاء المتوقّد، والحزم والدّهاء، وقوة الشخصية والشجاعة النادرة، والتجرد العظيم تجاه إجراءات الجاه والسلطة، والتقوى العظيمة⁽¹⁴⁾، وكان حازماً مع لينه، شديداً في غير قسوة، رقيقاً في غير تراخي⁽¹⁵⁾.

وكان لا ينفق موارد بلاده الغزيرة إلا على الرعية وتحصين بلاده وتوطيد مركزه الحربي، وقد أولى اهتماماً خاصاً بتدريب الجند باستمرار وتزويدهم بأفضل الأسلحة وتحصين المدن بالقلع وبناء الأبراج في مختلف نواحي دولته، كما شحّن الأبراج بالمقاتلين والمعدات الحربية لمراقبة تحركات العدو، وزوّد الأبراج بالحمام الزاجل لتنقل إليه الأخبار بالسرعة المطلوبة⁽¹⁶⁾.

وعندما قتل والده أثناء حصار قلعة جعّبر، كان عمره آنذاك ثلاثين سنة هجرية، قضى بعضها في ساحات الجهاد، فوطّن نفسه السير على آثاره، ومضى نحو حلب واستقر فيها، ويبدو أن الذي أشار عليه ذلك أسد الدين شيركوه،⁽¹⁷⁾.

وعند تتبع سيرة نور الدين يلاحظ أن تصرفاته كانت نتيجة استيعابه لقيم الاسلام وأحكامه، وكان يدرك أن النصر على الأعداء يسبقه النصر على النفس وشهواتها، والتزام الاسلام وأحكامه⁽¹⁸⁾، وكان مؤمناً بقاعدة النصر في التاريخ الإسلامي المتمثلة بقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم"⁽¹⁹⁾.

ويشير ابن الأثير إلى تميز نور الدين عن حكام عصره بقوله: "أن نور الدين جدد للملوك اتباع سنة العدل والانصاف وترك المحرمات، من المأكّل والملبس وغير ذلك، فإنهم كانوا قبلاً ذلك كالجاهلية هم أحدهم بطنه وفرجه، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم"⁽²⁰⁾.

(7) ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ج 1، ص 379.

(8) ابن خزيمة، أبو بكر محمد، صحيح ابن خزيمة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ج 2، ص 145، وصححه الألباني في التعليقات على صحيح ابن حبان، ج 4، ص 196.

(9) النحلوي، عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، دار الفكر، ط 25، 2007، ج 1، ص 142.

(10) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي (ت 565هـ/1169م) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1956م، ج 1، ص 9.

(11) ابن كثير، البداية والنهاية ج 12، ص 297.

(12) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 71، ابن قاضي شعبة، الكواكب الدرية، ص 15.

(13) بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1949، ج 1، ص 219، عاشور، سعيد، تاريخ الحركة الصليبية، ج 2، ص 416.

(14) خليل، عماد الدين، نور الدين محمود وتجربته الإسلامية، ص 11.

(15) ابن الأثير، الباهر، ص 141.

(16) الفلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج 4، ص 16، كرد علي، خطط الشام، بيروت، 1971، ج 2، ص 17.

(17) مؤنس، رائد نصر المسلمين على الصليبيين، ص 154.

(18) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 215.

(19) سورة محمد، آية 7.

(20) ابن الأثير، الباهر، ص 165.

برز نور الدين محمود في ساحة الأحداث في وقت ظهرت الحاجة إليه ، فوجد الميدان أمامه ليثبت نفسه، وليخلص الناس مما هم فيه من بلوى ،⁽²¹⁾ فالناظر إلى سيرته يشاهد حياة حافلة بالإنجاز و العطاء، ويتذكر قول ابن القيم: " فيا من يرى علو تلك المرتبة لا تنس الدرج، كم خاض بجرأ ملحاً حتى وقع بالعذب! وكم تاه في مهمم قفر حتى سمى بالدليل! وكم أنضّ مراكب الجسم! وفض شهوات الحس! وواصل السرى ليلاً ونهاراً، وأوقد نار الصبر في دياجي الهوى" ويبدو أن أهم الأسباب التي أهلته للتربع على القمة: التزامه بالعبادة وإخلاصه وتفانيه.

وكان نور الدين يحس بالمسؤولية إحساساً غامراً تجاه الزمن ، وتجاه دم المسلم ، وتجاه الأرض الإسلامية خوفاً من أن تغزى ، كان يواصل الليل بالنهار على حساب راحته وأهل بيته، ليتفرغ معتكفاً لمتابعا القضايا المختلفة، وما أن يحل الفجر حتى ينشغل بأمور دولته⁽²²⁾.

وقد حظي نور الدين محمود بعناية كثير من الدارسين والباحثين، على مدى العصور والأزمان، وقد واكب المؤرخون والأدباء الذين كانوا في عصره، ومن جاؤوا بعده، حياته وأعماله الجليلة، من تحقيق الانتصارات، وعند تتبعنا موضوع الحزم في سيرته وجدناه في الدراسات وكتب التاريخ والأدب، مُقسّماً إلى مواقف مختلفة وعديدة، كالورع والحزم في العبادات، والحزم مع الأهل والأقارب، والحزم مع الكفار والفرنجة، والحزم مع الأمراء وقادة الجيوش.

المبحث الثالث: الورع والحزم في نفسه وفي أداء العبادات:

قال عنه ابن كثير: "كان كثير المطالعة ، محافظاً على أمور دينه، محباً للخير، مقتصدًا في المأكل والملبس، حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمنه أعلى نفقة منه ، ولم يُسمع منه كلمة بغض في غضب ولا رضى"⁽²³⁾.

وكان مواظبا على أداء الصلوات في المسجد جماعة، وكثير القيام بالليل، ونتيجة لهذه الالتزامات الإيمانية استطاع أن يمسك نفسه ويلجم غضبه، ويتحكم في تصرفاته، فلم يسمع منه كلام بغض أو فحش⁽²⁴⁾.

وساق المؤرخون بعض من الأخبار التي تشير إلى مواظبة نور الدين على العبادات وحرصه على أدائها في أوقاتها فيقول أبو شامة: "سمعت ابن شداد يقول: بلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد علي قولهم أنه كان أكثر الليالي يصلي و يناجي ربه، مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها، بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها، ... وكان كفار القدس يقولون: إن نور الدين له مع الله سر!! فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، والله يستجيب دعاءه ويعطيه سؤلّه وما يرد يده خائبة، فيظفر علينا"⁽²⁵⁾.

اتخذ نور الدين داراً متواضعة مقراً لسكناه تطل على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال، ألحق به غرفة صغيرة يخلو فيها للعبادة، فلما ضربت الزلازل دمشق بنى بيتاً من الأخشاب يبيت فيه ويصبح، ويخلو فيه للعبادة، ويضيف ابن الأثير: "حدثني صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون زوجة نور الدين فقال: كان نور الدين يصلي فيطيل الصلاة، وله أوراد في النهار، فإذا جاء الليل وصلى العشاء نام، ثم يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاء إلى بكرة، ثم يظهر للركوب ويشغل بمهام الدولة"⁽²⁶⁾.

ومن صفاته أنه كان مؤثراً لأفعال الخير، يمنع نفسه عن الشهوات، وليست الدنيا عنده بشيء⁽²⁷⁾ أما عن زهده وورعه فقد كان لا يأكل ولا يلبس إلا من ملك له اشتراه من سهمه من الغنيمة أو من الأموال المرصدة لصالح المسلمين⁽²⁸⁾، وكان عُمر الملا رجلاً من الصالحين الزاهدين، وكان نور الدين يستقرض منه في كل رمضان ما يفطر عليه، وكان يرسل إليه بفتيت ورقاق يفطر عليه⁽²⁹⁾.

كان نور الدين فقيهاً متسامحاً غير متعصب، تعلّم الحديث النبوي الشريف، وعلمه طلباً للأجر، مقتدياً بالسنة النبوية⁽³⁰⁾ محافظاً على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة للقرآن الكريم، محباً لفعل الخيرات، عفيف البطن والفرج، مقتصدًا في الانفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس، لم تسمع

(21). مؤنس، راند نصر المسلمين على الصليبيين، ص 153.

(22). خليل، نور الدين، ص 16.

(23). ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ج 12، ص 278.

(24). المصدر السابق، ج 12، ص 279.

(25). أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص 34، خليل، نور الدين، ص 45.

(26). ابن الأثير التاريخ الباهر، ص 164.

(27). ابن كثير، البداية والنهاية، ج 12، ص 286.

(28). ابن الأثير، عز الدين محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت 630 هـ / 1139 م) الكامل في التاريخ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1966، ج 11، ص 304.

(29). ابن كثير، البداية والنهاية، ج 12، ص 282.

(30). أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين ج 1، ص 10.

منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضا، صموتاً وقوراً، لم يكن بعد الخليفة عمر بن عبد العزيز مثله في العدل والإنصاف والزهد، وكان كثير القيام في الليل مصلياً مبتهلاً داعياً، متضرعاً في أموره كلها⁽³¹⁾، وعادلاً زاهداً عابداً ورعاً متمسكاً بالشرعية مائلاً إلى أهل الخير، مجاهداً في سبيل الله كثير الصدقات⁽³²⁾. وكانت زوجته أرسلت أحباها من الرضاع تذكر له أنه لم يكفها ما كان قرره وتطلب منه الزيادة، فلما قال ذلك، تنكر واحمر وجهه ثم قال: من أين أعطيتها ما يكفيها! والله لا أخوض في نار جهنم هواها، إن كانت تظن أن الذي بين يدي من الأموال هي لي فئس الظن، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم، وأنا خازنهم فلا أخونهم فيها⁽³³⁾.

وقد قال أسامة ابن منقذ واصفاً زهده:

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا له فكلُّ على الخيرات منكمش⁽³⁴⁾

وقد عرف عنه مجاهدة النفس الذي يعد أصعب أنواع الجهاد حتى وصف بالجهاد الأكبر، وهو مقدمة لجهاد العدو (الجهاد الأصغر) وقد وصفه ابن القيسراني بأنه ذو الجهادين، ورسم له صورة الكمال الجامع للعدل وسلوك المحجة البيضاء وحسن السيرة والجود والصلاح والطهر:

ذو الجهادين من عدو نفس أيها الملك الذي ألزمنا س سلوك المحجة البيضاء⁽³⁵⁾

ويورد ابن عساكر في وصفه: "كان كثير المطالعة للعلوم الدينية، متبعاً للآثار النبوية، مواظباً على الصلوات في الجماعات، مراعيّاً لأدائها في الأوقات، مؤدياً لفروضها ومسنوناتها، معظماً لفقدائها في جميع حالاتها، عاكفاً على تلاوة القرآن على الأيام، حريصاً على فعل الخير من الصدقة والصيام، كثير الدعاء والتسبيح، راغباً في صلاة التراويح، عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق والخرج، متحريراً في المطاعم والمشارب والملابس، متبرياً من التباهي والتمازي والتنافس، عرياً عن التجبر والتكبر، بريئاً من التنجم والتطير، مع ما جمع الله له من العقل المتين، والرأي الصواب الرصين، والاقتداء بسيرة السلف الماضين، والتشبه بالعلماء والصالحين، والاقتفاء لسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم"⁽³⁶⁾. وقال ابن قاضي شعبة عنه: "كان نور الدين كثير الصيام، وله أوراد في الليل والنهار، وكان يقدم أشغال المسلمين عليها ثم يتم أوراده"⁽³⁷⁾، وكان يخصص في بيته مكاناً للعبادة فقد روي أنه ألحق ببيته صُفَّةً يخلو فيها للعبادة، فلما ضربت الزلازل دمشق، بنى بإزاء تلك الصفة بيتاً من الأخشاب: "فهو بيت فيه ويصبح ويخلو بعبادته ولا يبرح، ولما توفي دفن في البيت البسيط المقام من الأخشاب"⁽³⁸⁾.

وقد ذهب نور الدين مع الإيمان إلى مدى لا يصل إليه الزُّهاد المنقطعون للعبادة فكان حريصاً على الصلوات في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها، وكانت له أوراد وتسايح بالليل والنهار، حتى كان لا ينام إلا منتصف الليل، ثم ينهض فيتوضأ ويقبل على الصلاة والدعاء والأوراد حتى يقبل الصباح فيصلي، وإذا أهل شهر رمضان استقدم رجلاً صالحاً كان يتبرك به هو الشيخ عمر الملا شيخ جامع الموصل، فيقوم هذا الشيخ بإعداد فطور نور الدين⁽³⁹⁾.

وكدليل على التزام نور الدين محمود الصوم والصلاة يروي ابن الأثير: "أن نور الدين طلب عام (559هـ/1163م) نجدات من أمراء الأطراف لفتح حارم المعروفة بمحاصنتها الشديدة: فأما فخر الدين قرا أرسلان الأرتقي حاكم حصن كيفيا في ديار بكر فبلغني عنه أنه قال له ندماءه وخواصه: على أي شيء عزمتم؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشّف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي بنفسه والناس معه في المهالك، فكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة فقال له أولئك: فارقناك بالأمس على حال نرى الآن ضدها؟ فقال:

(31). ابن كثير، البداية والنهاية، ج 12، ص 298-299.

(32). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 2، ص 62.

(33). ابن قاضي شعبة، الكواكب الدرية، ص 54.

(34). الأصبهاني، خريدة القصر - قسم شعراء الشام - ج 1، ص 516.

(35). أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص 45.

(36). ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج 5، ص 215.

(37). ابن قاضي شعبة، الكواكب الدرية، ص 54.

(38). خليل، نور الدين، ص 41.

(39). مؤنس، راند نصر المسلمين على الصليبيين، ص 305-306.

إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي على طاعتي وأخرجوا البلاد من يدي، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر والنهب ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرأون كتب نور الدين ويعلنوني ويدعون عليّ فلا بد من إجابة دعوته، ثم تجهز هو أيضاً وسار إلى نور الدين بنفسه⁽⁴⁰⁾.

ويروي أبو شامة على لسان الصوفية: "أُحْم عندما دخلوا القدس سمعوا الصليبيين يقولون: "أن القسيم - يعنون نور الدين- له مع الله سر فإنه لم يظفر علينا وينصر علينا بكثرة جنده وجيشه، وإنما يظفر علينا ويُنصر بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله، ويدعو فإنه يستجيب له ويعطيه سؤله فيظفر علينا"⁽⁴¹⁾.

وفي إحدى المناسبات يقول ابن الأثير "أحضر نور الدين الفقهاء وطلب منهم الفتوى في أخذ ما يحلّ له، فأخذ ما أفتوه بحلّه، ولم يلبس من حرير أو ذهب أو فضة"⁽⁴²⁾.

وكان مترفعاً عن الهدايا والرشوة، فكل ما يُهدى إليه يعرض نظره عنه ولا يتصرف في شيء منه، ويخرج إلى مجلس القاضي ليحصل أثماناً لينفقها على عمارة المساجد⁽⁴³⁾.

وبلغ من ورعه أنه كان يتحاشى رؤية الهدايا التي تحبى إليه، فقد فيذكر ابن الأثير أنه "حُل إليه من مصر عمامة من القضيبي الرفيع مذهبة، فلم يحضرها عنده، فوصفت له فلم يلتفت إليها، وبينما هم معه في حديثها إذ جاءه رجل صوفيّ فأمر له بها، فقيل له: إنها لا تصلح لهذا الرجل، ولو أُعطي غيرها لكان أنفع له، فقال: أعطوها له فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة"⁽⁴⁴⁾.

ويتجلى تقواه في تخليه عن الألقاب التي كانت تمنحها الدولة العباسية لكبار القادة⁽⁴⁵⁾، فعندما تلقى من بغداد الهدية التي كان يُذكر بها على منابر بغداد وتقول: "اللهم أصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد، الم رابط المثار نور الدين وعدته، ركن الإسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضي الإمامة وأثيرها، فخر الملة ومجدها، شمس المعالي وملكها، سيّد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها محيي العدل في العالمين، منصف المظلوم من الظالمين، ناصر دولة أمير المؤمنين"، ما كان منه إلا أوقف ذلك⁽⁴⁶⁾.

المبحث الرابع: الورع والحزم في أمور العامة والرعية:

تميّز نور الدين بإيمانه العميق، وفطرته السليمة، مستفيداً من العلماء والفقهاء في عصره، فقد تمثل العقيدة الإسلامية التي أنتجت منه رجالاً صادقاً ذكياً حاملاً المسؤولية بكل إخلاص⁽⁴⁷⁾.

وفي أكثر من مناسبة أكد نور الدين على تنفيذ شريعة الإسلام وقيمه ومبادئه فيورد ابن الأثير: "نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه، وقال نحن شحن للشرعية نمضي أوامره⁽⁴⁸⁾، وقال مخاطباً أحد الحكام، أنظر في العوادي وما يجري فيها من الدعاوي، وميّز بين المحاسن والمساوئ، واحمل الأمور فيها على الشريعة⁽⁴⁹⁾، وذكر أبو شامة أنه: "خاطب موظفيه بقوله: والله إني أفكر في وال وليّته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك أمام الله، فبالله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام، لا تريايني قصة مظلوم لا ترفع لي، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وأرفعها لي"، وقال في موقعة الملتزم

(40). ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 11، ص 302، ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 318.

(41). أبو شامة، الروضتين، ص 34.

(42). ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص 53.

(43). الأصفهاني، محمد بن حامد (ت597هـ) سنا البرق الشامي، تحقيق: رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971، ص 143.

(44). ابن الأثير، الباهر، ص 165.

(45). خليل، عماد الدين، نور الدين محمود، دار القلم، دمشق، ط1، 1980، ص 42.

(46). ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص 68-69.

(47). مؤنس، رائد نصر المسلمين على الصليبيين، ص 301.

(48). ابن الأثير، الباهر، ص 166.

(49). العماد الاصفهاني، محمد بن حامد، سنا البرق الشامي، وهو مختصر البرق الشامي، اختصره: قوام الدين الفتح بن علي البنداري (642هـ) القسم الاول:

تحقيق: رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971، ص 146-147.

إني جئت ها هنا امتثالاً لأمر الشرع"، وبنى نور الدين الجوامع والمساجد والربط والزوايا للتعبد وتنمية الروح، فيذكر أبو شامة أنه كانت في الموصل خربة واسعة وسط البلد، أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلا من ذهب عمره ولم يتم على مراده، فأشار الشيخ عمر الملا أحد صالحى المدينة وشيوخها الورعين بابتاعها وبناء جامع كبير فيها تقام فيه الصلوات وتخطب به الجمع وتدرس العلوم ففعل نور الدين وأنفق أموالاً كثيرة⁽⁵⁰⁾.

وكان كثير الاجتماع بالزهاد وبيادهم الحديث والرأي حتى كاد هو نفسه أن يصبح زاهداً متصوفاً فحكى أنه كان يلبس مسوحاً ويقوم بصلي قطعة من الليل، ولم يكن له بيت يسكنه، فكان يقيم في غرفة في قلعة البلد، ولم تكن له جارية ولم يكن له معاشا يتقاضاه، بل كان يأكل ويلبس وينفق على نفسه من ملك له، ويوصف مجلسه بأنه: كما في صفة مجلس الرسول عليه السلام، مجلس علم وحلم وفقه وحياء لا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين وأمور الجهاد في بلاد العدو، ومن صور تدينه أن رجلاً من المشتغلين بخدمة زوجته حكى أنها استصغرت ما حدده لها من النفقة، فقال: من أين أعطاها؟ أما يكفيها مالها؟ والله لا أدخل نار جهنم بذلك! إن كانت ترى أن الأموال التي بين يدي هي لي فبئس الرؤيا، إنما هي أموال المسلمين، وأنا مؤتمن عليها، فلا أتصرف فيها⁽⁵¹⁾.

ومن حزمه أنه منع شرب الخمر في كل البلاد وأقام الحد الشرعي على كل متخلف دون استثناء أحد، وكان ينصف المظلوم ضعيفاً أو قوياً، ويسمع شكوى المظلومين بنفسه، ولا يوكل هذا الأمر لأحد من الأمراء خوفاً من ظلم قد يقع على أحد من الرعية دون علم ودراية بما يحدث خلفه⁽⁵²⁾.

وهذا الإيمان لقي صدقاً لدى الصليبيين، فأخذوا يوقرونه، واعترفوا بفضلهم وتميزه عليهم، فوصفوه بأنه له مكانة مع الله، واعتبروا انتصاره عليهم ليس بكثرة جنده وعسكره، وإنما بصلاحيته، وتدينه وقربه من الله الذي يستجيب دعاءه⁽⁵³⁾.

وكان نور الدين حسبما يذكر ابن واصل "يسعى وهو في قمة السلطة إلى التشبه بالعلماء والصالحين والافتداء بسيرة من سلف منهم، وكان العلماء عنده في المنزلة الأولى والخل العظيم، يحضرهم إلى مجلسه فيدنيهم ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويجلسه معه، ويقبل عليه بكلية تعظيماً وتقديراً واحتراماً، وكان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر"⁽⁵⁴⁾.

ويذكره ابن قاضي شهاب: "كان نور الدين - لما صارت له الموصل - قد أمر كمشتكين ألا يعمل شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي، وألا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بعد مراجعة الشيخ عمر الملا - أحد شيوخ الموصل الصالحين - وكان معتنياً بحفظ أصول الديانات، ولا يمكن أحداً من إظهار ما يخالف الحق، ومتى أقدم على ذلك أذبه بما يناسب بدعته"⁽⁵⁵⁾.

ويذكر ابن الأثير أنه كان مراعيًا لأصول الديانات فيقول: "حكى لي أن إنساناً كان بدمشق يعرف بيوسف بن آدم كان يظهر الزهد والنسك - وقد كثر اتباعه - أظهر شيئاً من التشبيه، فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حملاً وأمر بصفه وطيف به في البلد جميعه، ونودي عليه: هذا جزء من أظهر في الدين البدع، ثم نفاه إلى دمشق فسار عنها وقصد حران، وأقام بها إلى أن مات، ويسوق الله القصار الأعمار إلى البلاد الوخمة، وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، مجلس حلم وحياء لا تؤين فيه الحرم، وهكذا كان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين، وأحوال الصالحين، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو ولا يتعدى هذا، ويضيف ابن الأثير بلغني أن الحافظ أبا القاسم ابن عساكر الدمشقي رضي الله عنه، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق فرأى فيه من اللطيف وسوء أدب الجلوس فيه ما لأحد عليه، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين، فلم يتمكن من القول لكثرة اختلاف المتحدثين وقلة استماعهم، فقام وبقي مدة لا يحضر المجلس الصلاحي، وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر، فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه فقال: نزهت نفسي عن مجلسك، فإنني رأيت

(50). أبو شامة الروضتين، ج 1، ص 19، خليل، نور الدين محمود، ص 19.

(51). مؤنس، رائد نصر المسلمين على الصليبيين، ص 307.

(52). ابن قاضي شهاب، الكواكب الدرية، ص 15.

(53). مؤنس، رائد نصر المسلمين على الصليبيين، ص 305.

(54). ابن واصل، مفرج الكرب، ج 1، ص 283 المنتظم، في تاريخ الأمم والملوك، ج 10، ص 249.

(55). ابن قاضي شهاب، الكواكب الدرية، ص 32، 25.

كبعض مجالس السوق ، لا يستمع فيه إلى قائل ولا يرد جواب متكلم ، وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل: كأنما على رؤوسنا الطير تعلونا الهيبة والوفار، وإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا استمع إلينا"⁽⁵⁶⁾

ويضيف ابن قاضي شهبة: " أنه أمر بضرب طبلخانة في القلعة وقت السحر ليوقظ النائم ذلك الوقت لقيام الليل، ورتب للضارب جراية وجامكية، وكان عارفا بمذهب أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه، وليس عنده تعصب على أحد، والمذاهب عنده كلها سواء، ويذكر ابن عساكر: وسمع نور الدين الحديث وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعه، وجمعه حرصاً منه على فعل الخير في نشر السنة والتحديث ورجا أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء في الخبر، وكان له عجائز بدمشق وحلب وكان يخيظ الكوافي ويعمل السكاكر للأبواب وتبئعها العجائز ولا يدري بمن أحد، فكان بما يصوم ويفطر على أثمانها"⁽⁵⁷⁾.

ومن مزايه أيضاً أن أبو شامة يورد: " أنه أول من ابتنى داراً للعدل، كان يجلس فيها مرات عدة كل أسبوع، ويحضر معه القاضي والفقهاء من سائر المذاهب، لا يحجبه فيها عن الناس جميعاً حاجب ولا غيره، بل يصل إليه القوي والضعيف، وكان بكلم الناس ويستفهم منهم ويخاطبهم بنفسه، فيكشف الظالم، وينصف المظلوم"⁽⁵⁸⁾

وتذكر المصادر أن سبب بنائه لدار العدل أنّ أسد الدين شيراكوه - أحد أمراءه - اقتنى أموالاً كثيرة وتعدى على كثير من الناس في المناطق المجاورة فكثرت الشكاوى عليه ، ولم يستطع أحد من أمراء نور الدين محاسبته، فوصله الخبر فأمر بإثامة دار العدل لمساءلة أسد الدين وكل من يظلم⁽⁵⁹⁾، ولم يفرّق نور الدين في الحكم بين أبناء رعيته مهما اختلفوا في دينهم فكان يأخذ الحق للمظلوم وإن كان يهودياً ممن ظلمه حتى لو كان ابنه أو أحد كبار أمراءه.⁽⁶⁰⁾

المبحث الخامس: الحزم مع الأمراء والولاة والصلبيين:

يذكر ابن العديم: " أن نور الدين لم يحامل أمراءه على حساب مصلحة الأمة ، وكان يتخذ منهم موقفاً حازماً إذا اقتضت الحاجة، ويغضب عليهم في بعض الأحيان، وهذا ما حصل إثر معافاته من مرضه عام (554هـ/1159م) واللاحق بأخيه نصره الدين أمير ميران بحران الذي اضطر إلى الهرب وترك أولاده بالقلعة ، فملكها نور الدين محمود، وسلمها للأمير زين الدين علي ثم توجه للركة ، وبها أولاد أميرك الجاندار وهو من أعيان الأمراء فنزلها، فتوسل إليه جماعة من الأمراء بقبول الشفاعة فيهم ، لكنه غضب منهم قائلاً: هلا شفعتهم في أولاد أخي لما أخذت منهم حران، وكانت الشفاعة فيهم من أحب الأشياء إلي، فلم يشفعهم وأخذها منهم"⁽⁶¹⁾.

لم يكن نور الدين يستند في العقوبة على الشبهة والتهمة، بل يتحرى الشهود والاثباتات على المتهم فإن ثبتت عليه التهمة عاقبه بقدر الجناية ، فانتشر الأمن والأمان في ولايته، وقل المفسدون، ويذكر ابن الأثير: " أن أحد أسباب إقالة عبد المسيح أحد كبار مسؤولي الموصل من وظيفته عام (566هـ/1170م) كان خشونة الرجل على الرعية والمبالغة في إقامة السياسة"⁽⁶²⁾.

وبعد سيطرة نصره الدين أمير ميران على حلب، بعد أن اثار المشاكل في وجه أخيه نور الدين مستعيناً بالإسماعيلية وحاول التحرك تجاه دمشق، لكن نور الدين محمود أفضل تحركهم من خلال اتباع سياسة الحزم معهم⁽⁶³⁾، وأدرك نور الدين مدى الاخطار المحدقة بدولته من الداخل، فعمل على مواجهتها من خلال جهاز أمني كانت منتشراً داخل البلاد⁽⁶⁴⁾.

(56) . ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 173.

(57) . ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص 54-56.

(58) . أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص 33.

(59) . النعماني، الدارس، ج 1، ص 469.

(60) . ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 44.

(61) . ابن العديم، زبدة الحلب، ص 341.

(62) . ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 153-154.

(63) . ابن القلانسي، ذيل، تاريخ دمشق، ص 301، توفيق، عمر كمال، مملكة بيت المقدس الصليبية، الاسكندرية، 1958 ، ص 149.

(64) . ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1959، ج 3، ص 220.

ويذكر ابن قاضي شهبة أنَّ الفقيه أبو طاهر إبراهيم بن الحسن بن الحصني الحموي قال: "كنت عند نور الدين، وأخذ يراجع خراج أملاك بلاد الشام، فلما وصل إلى معرة النعمان⁽⁶⁵⁾ أحسنَّ بخططاً ما، فقرر انتزاع أملاك معرة النعمان من أهلها، معللاً ذلك أن بعض الثقات أخبروه بأنَّ أهل معرة النعمان يتقارضون الشهادة"⁽⁶⁶⁾.

وروي أنه بعد أن صلى نور الدين المغرب في أحد الأيام أخذ يفكر سارحاً، فظن أحدهم بأنَّه يفكر في أهل بيته، فأخذ يسأل صاحبه، فلاحظ نور الدين تتممة وكلام بصوت منخفض، فسألهم عن ماذا يتحدثون، وأقسم عليهما أن يتكلما، فقالا: سؤالنا عن سبب إفراطك في التفكير؟ نفى أن يكون فكره ذهب لأهل بيته، وإنما يفكر في وال ولده أمراً من أمور الدنيا ولم ينصف ولم يعدل، ثم طلب نور الدين منهما أن يخبراه بأي ظلم تراه أعينهما⁽⁶⁷⁾.

ويفسر أبو شامة حروب نور الدين ضد الولايات والمدن الإسلامية فيقول: "لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة، إما ليستنهضهم على قتال الصليبيين، أو للخوف عليهم منهم"⁽⁶⁸⁾، ويذكر ابن القلانسي عندما بلغه تحالف دمشق مع الفرنج قال: "إنني ما قصدتكم طالبا لمحاربتكم، وإنما كثرة شكايه المسلمين بأنَّ الفلاحين أخذت أموالهم، وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج، وانعدام الناصر لهم، ولا يحلُّ لي السكوت عنهم، مع معرفتي بضعفكم عن الدفاع عن أعمالكم، والسبب الذي دعاكم إلى الاستعانة بالفرنج، ونهبكم أموال الرعية ظلماً، وهذا ما لا يرضي الله تعالى"⁽⁶⁹⁾.

الحزم مع خصومه وأعدائه من الصليبيين:

أما عن حزمه تجاه الصليبيين، فقد احتلت الدوافع الدينية مكانة بارزة من بين الدوافع المحركة للسياسة الخارجية لنور الدين تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية، وأن روح المrapطة ظهرت جلية في عصره من خلال ميله الشخصي للجهاد، وقد رأى بنفسه المدافع الرئيس عن الإسلام فواصل الحرب على أساس ديني⁽⁷⁰⁾.

ولا شك أن نور الدين كان يواجه خصومه المسلمين وأعدائه الصليبيين على جبهات عديدة في وقت واحد، من أجل توازن القوى بينه وبين مملكة بيت المقدس، فقد امتدت ساحة صراعه مع الفرنج من إمارة الرها إلى أنطاكية ثم طرابلس وبيت المقدس وأسقط ما يزيد على 50 حصناً وتصارع معهما في مختلف الجبهات⁽⁷¹⁾.

فبعد مقتل عماد الدين زنكي حاول الأمير جوسلين الثاني استعادة الرها عام (542هـ/1147م) بمساعدة العناصر الأرمنية بداخلها الذين فتحوا أبوابها أمامه ما مكنه من الاستيلاء عليها، فهب نور الدين محمود إلى إنقاذها وقد تمكن نور الدين من دخول الرها ويستطرد سبط بن الجوزي بقوله: "ونهبها وسبي معظم أهلها وأجلى من كان بها من الصليبيين بعد أن إلحاق الهزيمة بهم، وجرح جوسلين وقتل بلدوين حاكم مرعش"⁽⁷²⁾. وتتوالى الروايات عن حزمه وشجاعته ففي أحداث عام (544هـ/1149م) أورد ابن الأثير "أنَّ نور الدين الحصار ضرب طوقاً حول حصن أنب شمالي الشام، فاجتمع له الفرنج بزعماء أمير أنطاكية ليعدهوه عن الحصن، فلم يتراجع وثبت مكانه، واشتبك معهم في قتال ضاري أظهر خلاله الشجاعة والصبر ما تعجب الناس والصليبيون على حد سواء، واسفرت المعركة عن هزيمة الصليبيين وقتل أمير أنطاكية"⁽⁷³⁾.

(65). معرة النعمان: بلدة تقع بين حلب وحماة تشتهر بأشجار الزيتون والتين والفسق والجوز، سميت بذلك نسبة إلى الصحابي النعمان بن بشير الذي مات له ولد ودفن فيها وسميت به. الحميري، الروض المعطار، ص 555، القزويني، آثار البلاد وإخبار العباد، ص 272، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص 156.

(66). ابن قاضي شهبة، ص 71.

(67). أبو شامة الروضتين، ص 59.

(68). أبو شامة، الروضتين، ص 544.

(69). ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 310.

(70). الهروي، الإشارات، ص 10، ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 315، البيهقي، مرآة الجنان، ج 3، ص 387.

(71). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 4، ص 272، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج 4، ص 528، الذهبي، دول الإسلام، ج 2، ص 83.

(72). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 8، ق 2، ص 191.

(73). ابن الأثير، النباهر، ص 69، خليل، نور الدين، ص 30.

وبسبب الخطر الذي مثله الأمير جوسلين الثاني أدرك نور الدين محمود ضرورة حرمان الصليبيين من قيادته فسعى إلى أسره وكان له ذلك وسمل عينيه وأودعه السجن فأمضى فيه تسعة أعوام حيث أدركته المنية عام (554هـ / 1159م)⁽⁷⁴⁾، وهكذا تمثلت خطة نور الدين محمود نحو إمارة الرها في منع أميرها السابق جوسلين الثاني استردادها.

وقد حظيت إمارة أنطاكية بنصيب وافر من مجهودات الدولة النورية الحربية، وإن عجزت عن إسقاطها نظراً لوقوف الامبراطورية البيزنطية ومملكة بيت المقدس ضد محاولات نور الدين لإخضاعها⁽⁷⁵⁾، فعندما شن أميرها رينودي شاتيون (أرنات) هجماته على الأعمال الحلبية أسره نور الدين، ومكث في الحبس 17 عاماً⁽⁷⁶⁾.

وعندما زحف بلدوين ملك مملكة بيت المقدس عام (552هـ / 1157م) إلى التركمان والعرب في مراعي بانياس، نهب وسلب وأسر بخلاف العهد الذي كان بينهم، فعندما سمع نور الدين بذلك لم ينتظر توضيحاً منهم حول ذلك، فسار إليهم وخطف سباياهم وأموالهم، وحاصر بانياس، وهاجم قوات بلدوين وأسر منهم، لكن بلدوين فرّ من أرض المعركة⁽⁷⁷⁾.

وفي عام (558هـ / 1163م) هاجم الصليبيون معسكر نور الدين عند حصن الأكراد على حين غفلة وهو في قلة من أصحابه، فانسحب إلى حمص وأخذ منها ما يحتاجه من خيام وتجهيزات عسكرية وعاد فمعسكر على بحيرة "قدس" على بعد أربعة أميال من مكان الهجوم، فاجتمع له كل ناج من المعركة، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي أن نقيم هاهنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المحييء إلينا ونحن على هذه الحال، فوبخه وقال: إذا كان معي ألف فارس لا أبالي بأعدائي قتلوا أم كثروا، والله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري⁽⁷⁸⁾.

ولما التقت قواته في حارم سنة (559هـ / 1164م) مع الصليبيين الذين يفوقه عدة وعددا انفرد نور الدين تحت تل حارم، وسجد لربه عز وجل ومترّج وجهه وتضرع إلى الله قائلاً: "يا رب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياؤك على أعدائك"⁽⁷⁹⁾.

وفي أحداث عام (567هـ / 1172م) يذكر ابن الأثير: "أنّ صليبيو اللاذقية اعترضوا مركبين للمسلمين مملوءين بالبضائع، وغدروا بالتجار على متنتهما، وبذلك نقضوا العهد مع نور الدين، فلما وصل الخبر له أرسل إليهم يطلب استرجاع ما أخذوه، فأبوا، فجمع عساكره وأرسل سراياه في بلاد الفرنج بين أنطاكية وطرابلس، وقام وحاصر عرقة وخرّب ربهضه، واستولى على حصني صافيتا والعزيمة، وقام بأعمال نهب وتخريب فيهما، فراسل الفرنج نور الدين وعرضوا عليه إعادة ما سلبوه من المركبين، وطلبوا تجديد الهدنة بينهما، فأجابهم على ذلك⁽⁸⁰⁾.

النتائج:

فبعد الانتهاء من هذه الدراسة يمكن الخروج بالنتائج الآتية:

- كان نور الدين فقيهاً متسامحاً غير متعصب، تعلّم الحديث النبوي الشريف، وعلمه طلباً للأجر، مقتدياً بالسنة مؤدياً للصلوات في جماعة، قارئاً للقرآن الكريم، محباً للخير، مقتصداً في الانفاق على نفسه وعياله في المأكل والمشرب، لم يكن بعد الخليفة عمر بن عبد العزيز مثله في العدل والإنصاف والزهد، وكان كثير القيام في الليل مصلياً مبتهلاً داعياً، متضرعاً في أموره كلها وعادلاً زاهداً.
- كان مترفعاً عن الهدايا والرشوة، فكل ما يصله منها، ينفقها على المساجد والفقراء المحتاجين ومصالح المسلمين.
- منع شرب الخمر في كل البلاد وأقام الحد الشرعي على كل متخلف دون استثناء أحد، وكان ينصف المظلوم ضعيفاً أو قوياً، ويسمع شكوى المظلومين بنفسه، ولا يוכל هذا الأمر لأحد من الأمراء خوفاً من ظلم قد يقع على أحد من الرعية دون علم ودراية بما يحدث خلفه.
- تشبّه نور الدين بالعلماء والفقهاء والمجاهدين والصالحين، فعمل على تقريبهم والاخذ بنصائحهم، وحضور مجالس العلم والانتفاع بها.

(74). سبط ابن الجوزي، مرآة الجنان، ج 8، ق 1، ص 202.

(75). عوض، نور الدين محمود، ص 44.

(76). عوض، نور الدين، ص 53.

(77). ابن الأثير، الباهر، ص 165.

(78). ابن الأثير، الباهر، ص 117، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 8، ص 224.

(79). أبو شامة، الروضتين، ص 322.

(80). خليل، نور الدين، ص 12.

– أما عن حزمه تجاه الصليبيين، فقد احتلت الدوافع الدينية مكانة بارزة من بين الدوافع المحركة للسياسة الخارجية لنور الدين تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية، وأن روح المrapطة ظهرت جلية في عصره من خلال ميله الشخصي للجهاد، وقد رأى بنفسه المدافع الرئيس عن الإسلام فواصل الحرب على أساس ديني.

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات محمد الجزري (ت 606هـ/م)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت
- ابن الأثير، عز الدين محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت 630هـ/1232م) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1963
- ابن الأثير، عز الدين محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت 630هـ/1232م) الكامل في التاريخ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1966
- الأصبهاني، عماد الدين الكاتب، أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد (ت 597هـ/1200م)، خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء الشام، تحقيق: شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1964.
- الأصفهاني، محمد بن حامد (ت 597هـ/1200م) سنا البرق الشامي، تحقيق: رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت 874هـ/1470م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1963.
- الحميري، ابن عبد المنعم، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت 900هـ/1494م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، مكتبة لبنان، بيروت، 1984.
- ابن خزيمة، أبو بكر محمد، صحيح ابن خزيمة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت
- ابن خلدون، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 808هـ/1406م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1959
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق: إحصان عباس، دار صادر، بيروت، 1969.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، (ت 748هـ/1374م)، سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1981.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ/1374م)، دول الإسلام، دار صادر، بيروت، 1999.
- الرازي، أحمد بن فارس القزويني (ت 395هـ/1004م)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979، مادة ووع
- الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحنفي (ت 666هـ/1267م)، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، صيدا، 1999، مادة ووع.
- الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الملقب بمرتضى (ت 1205هـ/1790م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، مادة ووع
- سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف ابن قزاوغلي (ت 654هـ/1256م)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، 1951.

- بن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000، مادة ورع
- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي (ت 565هـ/1169م) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1956م
- ابن العبري، غريغوريوس الملطبي (ت 685هـ/1286م)، تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت.
- ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن هبة الله (ت 660هـ) زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق، 1954.
- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت 1089هـ/1678م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري، بيروت، (د.ت).
- ابن قاضي شهاب، بدر الدين أحمد بن محمد (ت 874هـ/1469م) الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق: محمود زايد، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 1975.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت 627هـ/1273م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد (ت 555هـ/1160م)، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق: أمدرؤز، مكتبة المتنبي، القاهرة، (د.ت).
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله (ت 821هـ/1418م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (د.ت).
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت 752هـ/1351م)، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، 1950.
- ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت 774هـ/1372م)، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، (د.ت).
- ابن منظور، محمد بن مكرم (ت 711هـ/1311م)، لسان العرب، 15 مجلدًا، دار صادر، بيروت
- النعيمي، عبد القادر بن أحمد، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسني، مطبعة الترقين، سورية، 1951.
- الهروي، أبو الحسن علي، الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: جاكين سوردين، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1953
- البيهقي، أبو محمد عبد الله (ت 768هـ/1366م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان مرآة الجنان وعبرة اليقظان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط2، بيروت، 1970.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله (ت 626هـ/1228م)، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1979.
- ثانيا: المراجع:**
- بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1949
- توفيق، عمر كمال، مملكة بيت المقدس الصليبية، الاسكندرية، 1958
- خليل، عماد الدين، نور الدين محمود وتجربته الإسلامية، دار القلم، دمشق، ط2، 1987.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح، تاريخ الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1975.
- كرد علي، محمد، خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت، 1969.
- مؤنس، حسين، رائد نصر المسلمين على الصليبيين نور الدين محمود سيرة مؤمن صادق، الدار السعودية، جدة، ط3، 1987.